فهم أحرار ، فلله هداية شملت الجميع ، وهى هداية الدلالة ، أما الهداية المنفية هنا فهى هداية المعونة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً[1] فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾

البنيان الذى بنوا هو مسجد الضرار ، وأرادوا به ضراراً وكفراً وتفريقاً وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله ، وكان رسول الله ﷺ قد وعدهم أن يصلى فيه ، وكشف له الحق أنهم أرادوا بصلاة رسول الله فيه ذريعة[2] وأن يرسموا الصلاة فيه .

ولما عاد ﷺ من غزوة تبوك أنزل الله عليه : ﴿لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ وأرسل ﷺ بعضاً من صحابته[3] ليهدموا هذا المسجد ، ولم يكتف بالهدم ، بل أمر أن يُجْعَل مكان المسجد قمامة إشعاراً منه ﷺ بأن المسجد بنيته الأولى كانت نجاسته نجاسة معنوية ، وحين توضع فيه النجاسة الحسّية ، تكون طهارة بالنسبة للنجاسة المعنوية ، فكأنه طهر المكان من النجاسة المعنوية بالنجاسة الحسيّة .

ورسول الله يعلمنا هنا أن الأمر ليس أمر نجاسات حسيّة ، وإنما النجاسات المعنوية أفظع من النجاسات الحسيّة ، فالإنسان قد يتحرز من

---

(١) ريبة : شكاً ونفاقاً فى قلوبهم .
(٢) ذريعة : أى وسيلة وتوصلاً لهدف معين .
(٣) منهم : مالك بن الدخشم ومعن بن عدى . أما مالك فقد شهد بدراً . و أما معن بن عدى بن الجد حليف الأنصار فقد شهد غزوة أحد . (انظر الإصابة فى تمييز الصحابة) .

النجاسات الحسيّة ، لكن النجاسات التى تخامر [1] القلوب والعقائد والعواطف فهى التى تسبب للإنسان الشقاء.

وهنا يقول الحق: ﴿ لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِى بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ فبعد أن هدم رسول الله ﷺ هذا البنيان وصار موقعه موضع القذارة، بقى أمر هذا البنيان موضع شك منهم وصاروا يتوجسون أن ينزل بهم رسول الله ﷺ العقاب ، وظلوا فى شك من أن يصيبهم رسول الله ﷺ بسوء، ولن يذهب هذا الشك من قلوبهم إلا أن تقطع تلك القلوب بالموت.

إن الشك والريبة محلها القلب ، والقلب هو العضو الثانى فى استبقاء الحياة، أما العضو الأول فى استبقاء الحياة فهو المخ ، فما دامت خلايا المخ سليمة ، فمن الممكن أن تعود الحياة إلى الإنسان ولكن برتابة ، أما القلب فحين يتوقف فالأطباء يحاولون أن يعيدوا له الحركة ، إما بشق الصدر أو تدليك القلب ليعود إليه النبض ، وقد يفلحون ما دامت خلايا المخ سليمة ، فالمخ فى الإنسان هو سيد الجسم كله ، ولذلك تجدون أن الحق قد صان المخ بأقوى الصيانات بعظام الجمجمة.

وكذلك النخاعات التى تتحكم فى إدارة الجسد ، نجده سبحانه قد كفل لها من العظام أعلى درجات الصيانة. ونرى فى الحفريات أن الجماجم هى أبقى شىء ، مما يدل على أنه للحفاظ على المخ قد جعل الله له أقوى العظام ، وما دام المخ سيد الجسم سليماً فمن الممكن أن تستمر الحياة ، ولذلك نجد أن الجسم كله يخدم المدبر للجسم ، ويحافظ على صيانته.

والإنسان إن تعرض للجوع يأكل من شحمه ، وحين يفوته ميعاد تناوله للطعام ، يعرض عليه الطعام يقول: ليس لى رغبة فى الأكل ، وهذا ليس إلاّ تعبيراً علمياً لما حدث فى الجسم ، فأنت أكلت بالفعل ، فما دام قد مر

(١) خامر القلوب: خالطها وامتزج بها.

ميعاد طعامك ولم تأكل فإن جسمك يأخذ ما يحتاجه من الدهون المخزونة به ، وإذا ما انتهى الدهن يأخذ الإنسان من لحمه ، وإذا ما انتهى اللحم يأخذ الإنسان غذاءه من عظامه ، وكل ذلك من أجل أن يبقى السيد وهو «المخ» مصاناً.

ولذلك تجد القرآن حينما عرض مسألة سيدنا زكريا ، قال على لسانه:

﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ... (٤)﴾ [مريم]

أي: أن آخر مخزن للقوت قد قارب على الانتهاء ، أما النبات فهو عكس الإنسان ، فسيد النبات أسفل شيء فيه وهو الجذر ، ويحاول النبات المحافظة على جذره ، فإن امتنع الغذاء عن النبات بامتناع المياه عنه ، بدأت أوراق النبات في الذبول ؛ لأنها تعطى حيويتها ومائيتها للجذر ، ثم تجد الساق تجف لأنها تعطى حياة للجذر ليستمر إلى أن يأتى قليل من المياه أو قليل من الغذاء ، فيعود الجذر قوياً.

والقلب هو محل العقائد والاعتقادات ، وهى الأشياء التى تنشأ من المحسّات ، وتتكون فى الفؤاد[1] لتصير عقائد لا تطفو للمناقشة من جديد ، أما العقل فهو يناقش كل المسائل ، وما إن ينتهى من الاقتناع بفكرة حتى تستقر فى القلب.

وهنا يوضح لنا الله أن هذا البنيان سيظل أثره فى قلوبهم ، ولن ينتهى منهم أبداً إلا بشىء واحد هو : ﴿ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ والقلوب لا تتقطع إلا بالموت، وكأن الشك من هذا البنيان سيظل يلاحقهم إلى أن يموتوا.

(١) القلب هو مضخة الدم فى شرايين الجسم وعروقه هذا تعريف المادة ، والفؤاد هو عقل القلب وهو محل العقائد الناشئة عن الإدراك ، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا (٤٦)﴾ [الحج] وقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤)﴾ [محمد] ويطلق القلب على الفؤاد ، كما يطلق الفؤاد على القلب . فهما متلازمان . كالقلب يصل إلى الاعتقاد بالإدراك ثم يصير الإدراك انفعالاً ، وبعد الانفعال يكون الاختيار بمناقشة المسائل، ثم يكون الاختيار فى البدائل وينتهى بالإقناع .

أو : ﴿ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ أى: أن تتقطع توبة وأسفاً وحزناً.

وهذا تهديد لهم بأن مسيئاتهم ليست من الخارج ، وإنما مسيئاتهم من ذوات نفوسهم . ووجود الريبة فى نفوسهم ، يعنى أنها لن تجعلهم يستشرون فى الإفساد لخوفهم المستمر من العقاب.

ثم يقول سبحانه: ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ وعلمه سبحانه شامل فلا تخفى عليه خافية ، وحكمته سبحانه أنه يضع كل شىء فى مكانه.

ثم يقول سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ۚ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) ﴾

بعد أن تكلم الحق عن الذين تخلفوا عن الغزو ، وعن الذين اعتذروا بأعذار كاذبة ، وعن الذين أرجأ الله فيهم الحكم ، أراد أن يبين سبحانه أن تخلفهم ليس له أى أهمية ؛ لأن الله سبحانه وتعالى عوّض الإيمان وعوّض الإسلام بخير منهم ، فإياكم أن تظنوا أنهم بامتناعهم عن الغزو سوف يتُعبون الإسلام ، لا ؛ لأن الحق سبحانه ينصر دينه دائماً.

فيقول الله سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ[1] مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم ﴾

يقول العلماء: كيف يشترى الله من المؤمنين أنفسهم وأموالهم، وهو الذى خلق الأنفس وهو الذى وهب المال ؟ وقالوا : ولكن هبة الله لهم لا يرجع فيها ، بدليل أن المال مال الله ، وحين أعطاه لإنسان نتيجة عمله أوضح له: إنه مالك بحيث إذا احتاجه أخ لك فى الدين ، فأنا أقترضه منك، ولم يقل: «أسترده». فسبحانه القائل:

﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة]

لقد احترم الحق الهبة للإنسان ، واحترم عرقه وسعيه ، وكأنه سبحانه حينما وهب البشر الحياة ، ووهبهم الأنفس أعلن أنها ملكهم حقاً ، ولكنه أعطاها لهم ، وحين يريد أخذها منكم فلا يقول : إنه يستردها بل هو يشتريها منكم بثمن ؛ ولذلك يقول النبى عليه الصلاة والسلام: «إن سلعة الله غالية ، إن سلعة الله غالية ، إن سلعة الله هى الجنة».

أى: اجعلوا ثمنها غالياً.

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم﴾ . وكلمة ﴿اشْتَرَىٰ﴾ تدل على أن هناك صفقة ، عملية شراء وبيع. وإذا كان هذا ملكاً لله ، فالله هو المشترى ، والله هو البائع ، فلابد أن لهذا الأمر رمزية ، وهذه الرمزية يلحظها الإنسان فى الولى على اليتيم أو السفيه ، فقد يصح أن يكون عندى

(١) الشراء والاشتراء : التملك بالمبادلة والعوض. وشَرَى يَشْرِى : بمعنى باع وبمعنى اشترى ، والمشترى يعطى شيئاً ويأخذ بدله شيئاً ، فهو بائع وهو مُشْترٍ، وجاء شرى بمعنى باع فى قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ..﴿٢٠﴾﴾ [يوسف] أى : باعوه وجاء اشترَى بمعنى أخذ السلعة ودفع الثمن فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ...﴿١١١﴾﴾ [التوبة].

شىء وأنا ولى على يتيم، فأشترى هذا الشىء بصفتى ، ثم أبيعه بصفتى الأخرى ، فالشخص الواحد يكون هو الشارى وهو البائع [(١)] ، فكأن الله يضرب لنا بهذا المثل: «إنكم بدون منهج الله سفهاء، فدعوا الله يبيع ودعوا الله يشترى».

وما الثمن؟ يأتى التحديد من الحق: ﴿ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ هذا هو الثمن الذى لا يفنى ، ولا يبلى ، ونعيمك فيها على قدر إمكانيات الله التى لا نهاية لها ، أما نعيمك فى حياتك فهو على قدر إمكانياتك أنت فى أسباب الله ، وهكذا يكون الثمن غالياً.

وحينما جاء الأنصار فى بيعة العقبة لرسول الله ﷺ قال له عبد الله بن رواحة: اشترط لربك ولنفسك ما شئت.

قال: «أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم».

قالوا: فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟

ماذا قال رسول الله ؟ أقال لهم ستفتحون قصور بُصْرى والشام وتصيرون ملوكاً ، وينفتح لكم المشرق والمغرب ؟

لم يقل ﷺ شيئاً من هذا ، بل قال: «الجنة» ؛ لأن كل شىء فى الدنيا تافه بالنسبة لهذا الثمن ، قالوا: «ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل» [(٢)] وبمجرد

(١) هذا يجوز عند الإمام مالك بشرط ألا يحابى نفسه فى الشراء من مال اليتيم أو البيع إلى نفسه . انظر فقه السنة للشيخ سيد سابق (٣/ ٣٣٤).

(٢) حينئذ نزلت هذه الآية. وقد أورد سبب نزول هذه الآية السيوطى فى أسباب النزول (ص ١٠١) طبعة دار الشعب ، وعزاه لابن جرير الطبرى من مرسل محمد بن كعب القرظى ، وكذا أورده ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٣٩١)، والقرطبى فى تفسيره (٤/ ٣١٩٣) .

عقد الصفقة العهدية بين رسول الله ﷺ وبين الأنصار [١] ، كان من الممكن أن يموت واحد أو اثنان أو ثلاثة قبل أن يبلغ الإسلام حظه وذروته ، وقد يقال: فلان مات ولم يأخذ شيئاً من ماديات الحياة . لكنه ﷺ حين قال: «الجنة» ، فمن مات يدخلها .

﴿ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ هذا هو الثمن ، وهو وعد بشيء يأتي من بعد ، ولكنه وعد ممن يملك إنفاذه ؛ لأن الذي يقدح في وعود الناس للناس ، أنك قد تعدُ بشيء ولكن تظل حياتك ولا تفي به ، أو أن تقل إمكاناتك عن التنفيذ .

إذن: الوعد الحق هو ممن يملك ويقدر ، وحيّ لا يموت ، لذلك يقول في هذه الآية:

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾

ويقول في آخرها :

﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ﴾ و«وَعْد» مصدر، فأين الفعل؟ إننا نفهمها: أي وعدهم الله بالجنة وعداً منه سبحانه وهو الذي يملك وهو وعد حق. والقرآن حين يأتي بقضية كونية ، فالمؤمن يستقبلها بأنها سوف تحدث حتماً، فإذا ما جاء زمنها وحدثت صارت حقّاً ثابتاً ، مثلما يقول سبحانه :

﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

هذه قضية قرآنية، حدثت من قبل و ثبتت في الكون .

وماذا بعد أن اشترى الله من المؤمنين أموالهم وأنفسهم ؟ هنا يحدد الحق المهمة أمامهم:

---

(١) كانوا ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين من الأوس والخزرج منهم : سعد بن الربيع ، وعبد الله بن رواحة ، وأبو مسعود الأنصاري ، والبراء بن معرور ، وسعد بن عبادة ، والمرأتان هما : نسيبة بنت كعب ، وأسماء بنت عمرو .

﴿ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ و«قَاتَلَ» من «فَاعَلَ» ، و«قَتَلَ» غير «قَاتَلَ» . فالقتل عمل من جهة واحدة ، لكن «قَاتَلَ» تقتضى مفاعلة ، مثلها مثل «شَارَكَ زيدٌ عَمْراً» . وكل مادة «فاعَلَ» و«تفاعَلَ» توضح لنا الشركة فى الأمر ، فكل واحد منهم فاعل ، وكل واحد منهم مفعول . ولذلك تجد فى أساليب العرب ما يدلك على أن ملحظ الفاعلية فى واحد هو الغالب ، وملحظ المفعولية فى الآخر هو الغالب ، ولكن على التحقيق فإن كل واحد منهم فاعل من جهة ، ومفعول من الجهة الأخرى .

فمثلاً : الرجل الذى سار فى الصحراء التى فيها حيَّات وثعابين ، ولم يُهِج الرجل أثناء سيره الحيّات ولا الثعابين ، بل تجنبها ، والثعبان ما دُمْتَ لا تهيجه فهو لا يفرز سماً ؛ لأن سم الثعبان لا يفرز إلا دفاعاً .

وساعة يرى الثعبان أنك ستواجهه يستعمل سُمَّه ، فإذا كان الرجل سائراً وله قدرة المحافظة على عدم إهاجة الثعابين ولا الحيات ، فهو قد «سالمها» ، والشاعر يقول :

قد سَالَمَ الحيَّاتُ منه القَــدَما ... والأفْعُوان [1] والشُّجَاعَ الشَّجْعَما [2]

والأفعوان هو الثعبان الفظيع ، ونلحظ أن «الأفعوان» منصوب ، وأن «الحياتُ» مرفوعة ، إذن : فالقدم مفعول ، والحيات فاعل وجاء بالقدم منصوبة ، وكذلك الشجعم لما فى الحيات من المفعولية ؛ لأن الحيّات إذا سالمت القدمَ فقد سالمها القدمُ ، فكأنه قال : سالم القدمُ الحيّاتِ ، ثم جعل الأفعوان بدلاً منها .

(١) الأفعوان : ذكر الأفاعى . والمؤنث « أفعى » وهى الحية .
(٢) الشجاع الشجعم : الثعبان الضخم .

وهنا يقول الحق:

﴿ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ ﴾ فمن يقاتل ، إما أن يَقْتل وإما أن يُقْتَل ، وفى قراءة الحسن يقدم الثانية على الأولى ،[1] ويقول : «فيُقْتَلُون ويَقْتُلُونَ»؛ فالمسألة صفقة بمقتضى قوله : ﴿ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ لذلك يُقدم قتلهم ، وهو الأقرب لمعنى الصفقة . وأيضاً فإن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً ،[2] وإذا ما جاء المؤمنون فى جانب ؛ والكفار فى جانب آخر فالمؤمنون بنيان ، والحق هو القائل:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ④ ﴾
[الصف]

فإذا ما سبق قوم من المؤمنين بأن يُقْتَلوا ، فكأن الكل قُتل . إذن : فحين قتل بعض المؤمنين ، يمكننا أن نقرأ قول الحق على قراءة الحسن ونقول : « فيُقْتَلُونَ ويَقْتُلُونَ » .

أو: أنهم حينما دخلوا إلى القتال وضعوا فى أنفسهم أن يقتلوا ، ولم يغلبوا جانب السلامة.

وكلنا نعرف قصة الصحابى الذى قال لرسول الله ﷺ: أليس بينى وبين الجنة إلا أن ألقى هؤلاء فيقتلونى ؟ قال له: «نعم» فأخرج الصحابى تمرة كانت فى فمه، ودخل إلى القتال وكأنه يستعجل الجنة[3].

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣١٩٤): « قرأ النخعى والأعمش وحمزة والكسائى وخلف بتقديم المفعول على الفاعل. وقرأ الباقون بتقديم الفاعل على المفعول».

(٢) عن أبى موسى الأشعرى قال قال رسول الله ﷺ : «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٤٦)، ومسلم فى صحيحه (٢٥٨٥) واللفظ لمسلم.

(٣) وذلك أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ يوم أحد فقال له: أرأيت إن قُتلت فأين أنا؟ قال: فى الجنة. فألقى تمرات فى يده، ثم قاتل حتى قُتل. أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٠٤٦) ومسلم (١٨٩٩) فى صحيحه من حديث جابر بن عبد الله .

﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾، وهذا تأكيد بأن لهم الجنة، وهو وعد من الحق فى التوراة والإنجيل والقرآن لمن يدخلون المعارك دفاعاً عن الإيمان.

وكل دين فى وقته له مؤمنون به، ويدخلون المعارك دفاعاً عنه. إذن: فالقتال فى سبيل نصرة الدين والدفاع عنه ليس مسألة مقصورة على المسلمين، لكنها لم تكن عامة عند الرسل، فقد كان الحق سبحانه وتعالى هو الذى يتدخل لعقاب أهل الكفر، وكان الرسول يبلِّغ، فإذا لم يستجبْ له قومه؛ عاقبهم الله سبحانه، والقرآن يقول:

﴿ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ... (٤٠) ﴾[1] [العنكبوت]

ولم تأت مسألة القتال فى سبيل الله إلا عندما طلب اليهود من بعد سيدنا موسى عليه السلام[2] أن يقاتلوا فى سبيل الله:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ... (٢٤٦) ﴾ [البقرة]

إذن: فهذا وعد من الله فى التوراة للذين آمنوا بموسى عليه السلام، وطالبوا بالقتال فى سبيل الله، وكذلك فى الإنجيل للذين آمنوا بعيسى عليه

(١) هذه أربعة أنواع من العذاب: «الحاصب» وهى ريح شديدة البرد عاتية شديدة الهبوب جداً تحمل حصباء الأرض فتلقيها على الناس وتقتلعهم من الأرض وقد عذب الله بها قوم «عاد». و«الصيحة» التى أخذت قوم «ثمود» فقضت عليهم. و«الخسف» الذى عاقب الله به قارون. و«الغرق» الذى قضى الله به على فرعون وجنوده وعلى الكافرين من قوم نوح عليه السلام.

(٢) كان هذا بعد سيدنا موسى بما يقرب على الألف عام، والنبى هنا الذى طلب منه قوم بنى إسرائيل أن يبعث لهم ملكاً يقاتلون معه فى سبيل الله هو: شمعون أو شمويل، قاله السدى ومجاهد ووهب بن منبه. وهو ما رجحه ابن كثير فى تفسيره (١/ ٣٠٠)

السلام ، وأخيراً فى القرآن للذين آمنوا بمحمد ﷺ [(١)].

أو : أن هذا الوعد خاص بأمة محمد ﷺ ؛ لأنها الأمة المأمونة للدفاع عن كلمة الله بالمجهود البشرى. وبهذا يكون الوعد فى التوراة والإنجيل والقرآن هو وعد لأمة محمد ﷺ ،فكأن التوراة قد بُشِّر فيها بهذا للمسلمين المؤمنين بمحمد ﷺ ، وكذلك الإنجيل قد بُشِّر فيه بهذا الوعد للأمة المسلمة. والدليل على ذلك هو قول الحق سبحانه فى آخر سورة الفتح :

﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ .. (٢٩)﴾ [الفتح]

إذن: فالدين لا يطبع المتدين لا على الشدة ولا على الرحمة ، إنما يطبعه انطباعاً يصلح لموقف الشدة فيكون شديداً ، ولموقف الرحمة فيكون رحيماً. ولو أنه مطبوع على الشدة لكان شديداً طوال الوقت ، ولو طُبع على الرحمة فقط لكان رحيماً كل الوقت، ولكن شاء الحق أن يطبع المؤمنين ليكونوا أشداء على الكفار رحماء بينهم ؛ ولذلك فالدين لا يطبع الناس على ذلة ولا على عزة ، إنما يجعلهم أذلة على المؤمنين ، وأعزة على الكفار.

وبذلك يُطوِّع المؤمن نفسه ، فهو شديد ورحيم ، عزيز وذليل ، فهو طوع للمنهج ، فحين يتطلب منه منهج الله أن يكون شديداً يشتد ، وحين

(١) قال القرطبى (٤/ ٣١٩٤) فى تفسير الآية : «هذا إخبار من الله تعالى أن هذا كان فى هذه الكتب، وأن الجهاد ومقاومة الأعداء أصله من عهد موسى عليه السلام» وقد قال عز وجل على لسان سيدنا موسى : ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [المائدة : ٢١] إلى أن قال : ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة : ٢٤] .

يتطلب منهج الله منه أن يكون رحيماً يرحم ، وحين يتطلب الله من أن يكون ذليلاً بالنسبة لإخوانه المؤمنين يذل ، وحين يتطلب الله منه أن يكون عزيزاً على الكافرين يعز .

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ .. (٢٩) ﴾ [الفتح]

وتتتابع صفات المؤمنين فى قوله سبحانه :

﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا .. (٢٩) ﴾ [الفتح]

وهم فى ركوعهم وسجودهم إنما يعبرون عن قيم الولاء لله .

ثم يصفهم سبحانه :

﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ... (٢٩) ﴾ [الفتح]

وهم لا يريدون إلا رضاء الله وفضله ، والنور يشع من وجوههم؛[1] لأنهم أهل للقيم ، ويضيف سبحانه :

﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ... (٢٩) ﴾ [الفتح]

أى : أن التوراة جاءت فيها البشارة بأن محمداً سيجىء بأمة فيها الخصال الإيمانية والقيمية التى لا توجد فى اليهود ، هؤلاء الذين تغلب عليهم المادية ولا ترتقى أرواحهم بالقيم الدينية ، فأنت إن نظرت إلى التوراة المحرفة

---

(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما، أن نبى الله ﷺ قال : «إن الهدى الصالح والسمت الصالح والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة» . أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٢٩٦) وأبو داود فى سننه (٤٧٦٦) . وقال بعض الصالحين : إن للحسنة نوراً فى القلب، وضياء فى الوجه، وسعة فى الرزق، ومحبة فى قلوب الناس . انظر ابن كثير (٤/ ٢٠٤) .

فلن تجد فيها أى شىء عن اليوم الآخر ، بل كلها أمور مادية .

أما فى الإنجيل فقد جاءت المسيحية بالرهبنة ، والماديات فيها ضعيفة؛ ولذلك جاء القرآن منهجاً متكاملاً تنتظم به الحياة ، قيماً حارسة ، ومادة محروسة ؛ فالعالم يفسد حين تأتى المادة فتطغى وتنحسر القيم ، أو حين توجد قيم ليس لها قوة مادية[1] تدافع عنها ، فيأبى القوى الظالم إلا أن يطغى بقوته المادية على القيم الروحية فيكون الخلل فى البناء الاجتماعى .

إذن : فنحن فى حاجة دائمة إلى قيم تحرسها مادة ، ومادة تحرسها قيم . وأخبر الله قوم موسى : أنتم لا تملكون القيم المعنوية ، وتعتزون بالقيم المادية، لذلك ستأتى أمة محمد وهى تملك قيم الروح والمادة ، فهم رُكَّع ، سُجَّد ، يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، وسيماهم فى وجوههم من أثر السجود .

وأبلغ سبحانه قوم عيسى عليه السلام أنه سيأتى فى أمة محمد بمنهج يعطيهم ما فقدتموه من المادة؛ بسبب أنكم انعزلتم عن الحياة وابتدعتم رهبنة ما كتبها الله عليكم ، بينما نحن نريد حركة فى الحياة .[2]

﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ[3] يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ...(٢٩) ﴾ [الفتح]

---

(١) جمع الإسلام بين عقل المادة بالتخطيط وعقل الروح بالتهذيب، ومن هنا يكون الانسجام بين طاقة الروح وطاقة المادة ، وطاقة العقل ، فرسالة الإسلام هى عقل القيم ، يقول الحق ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ .. (١٣) ﴾ [الشورى]

(٢) يقول سبحانه : ﴿ وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٧) ﴾ [الحديد] .

(٣) شطأه : طرفه . يقال : أشطأ الزرع إذا نبت ونما . آزره : أزر الزرع وتأزّر : قوّى بعضه بعضاً . استغلظ فاستوى على سوقه : صار غليظاً وقويت واستحكمت نبتته .

ومن حق المسلمين أن يقولوا: أيها الكافرون ليست لكم مادة تطغون بها علينا؛ لأن الإسلام يريد من حركة حياتنا على ضوء منهجه فى الأرض أن تتوازن المادة مع القيم؛ لأن القيم هى التى تحرس الحضارة، والمادة إنما تحرس القيم، وحين يمتلك المسلمون القوة المادية فسيرتدع أى إنسان عن أن يطمع فى فتنة المسلمين فى دينهم؛ ولذلك قال الحق سبحانه:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ... ٦٠﴾ [الأنفال]

فالكفار إذا رأوك قد أعددْتَ لهم يتهيبون.

وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها، يقول الحق:

﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾

وما دام الحق قد أعطى الوعد، فلن يوجد من هو أوفى منه؛ لذلك يقول: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ وبذلك يطمئننا سبحانه على أن وعده محقق؛ لأن العهد ارتباط بين مُعَاهَد ومُعَاهِد، والذى يخرج عن هذا الارتباط أمران:

الأول: ألا يكون صادقاً حين أعطى عهداً، بل كان فى نيته ألا يوفى، ولكنه أقام العهد خديعة حتى يستنيم له المعَاهَد.

والأمر الثانى: أن يكون قد أعطى وعداً بما لا يستطيع تنفيذه، فهو كاذب.

والله لا يليق به لا الكذب ولا الخديعة؛ فسبحانه مُنَزَّه عن كل ذلك، ولا أحد أوْفَى بالعهد من الله.

فقد يُطعن فى العهد والوفاء به عدم القدرة، لكن قدرة الحق مستوفية.

إذن: فالعهد الحقيقى إنما يؤخذ من الله ، وقد جاء الحق بهذه القضية بشكل استفهامى ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ﴾ ؟ فالإجابة: لا أحد ؛ لأن الذى يقدح فى مسألة العهد الخُلْف والكذب وغير ذلك.

والله سبحانه مُنزَّه عن الكذب والخديعة ؛ لأن الخديعة لا تأتى إلا من ماكر ، وإذا سمع أى إنسان ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ ثم أدار فكره فى الكون ليبحث عن جواب ، فلا يجد إلا أن يقول : «الله» ، ولا أحد أوفى من الله بالعهد. وما دام الوعد بالجنة ، فالجنة لا يملكها إلا هو سبحانه ووعده حق ، وكلها تأكيدات بأن المسألة واقعة وحادثة.

ولهذا يقول سبحانه : ﴿ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) ﴾ [التوبة]

فالنتيجة لهذه المسألة كلها من شراء الله من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، ثم وعده الحق المبيَّن فى التوراة والإنجيل والقرآن ، وكلها شهادات مسجلة هى الاستبشار بما باعه المؤمن لله. فالإنسان - ولله المثل الأعلى - لا يسجل إلا ما يكون فى صالح قضيته، ولا يسجل للخصم ، فعندما يكون عندك صَكٌّ[1] على فلان ، فأنت الذى تحتفظ به وتحرص عليه؛ لأنه يؤيد حقك.

والحق سبحانه يقول:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ [الحجر]

والقرآن هو الحجة الكاملة الشاملة فى كل أمور الدنيا والآخرة، ومن فَرْط صدق القرآن أن البشر قد يصلون إلى قضية كونية ما ، ومن بعد ذلك تُخَالَف ، وحين تعود إلى القرآن تجد أن كلام القرآن هو الذى صدق ، وقد حفظ الحق سبحانه القرآن لأن قضايا الكون الذى خلقه الله لا يمكن أن

(١) الصَّك: الكتاب، فارسى معرب. يقيد فيه الديون والأعطيات.

تخرج عن قضايا القرآن ؛ لأن منزل القرآن وخالق الكون واحد ، فلا شيء يصادمه .

﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ﴾

قوله الحق : ﴿فَاسْتَبْشِرُوا﴾ مأخوذ من «البشرة»، وهي الجلد عامة، وإن كان الظاهر منه هو الوجه .

وحين يقول الحق سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم﴾ فقد يفهم أحد أن النفس سوف تضيع ، وأن الأموال سوف تنفق، وهذا قد يُقبضُ النفس فهذا فيه الموت ، وخسارة للمال ، وكان من الطبيعي أن يشحب وجه الإنسان ويفزع ويخاف . ولكن ساعة يقول الحق سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ﴾ تجد بشرة المؤمن تطفح بالسرور. والبشر ، ويحدث له تهلل وإشراق، مع أنه هنا سيأخذ نفسه، ولكن المؤمن يعرف أنه سبحانه سيأخذ نفسه ليعطيه الحياة الخالدة .

إذن : قضايا الإيمان كلها هكذا لا يجب أن تصيبنا بالخوف ، بل علينا أن نستقبلها بالاستبشار ، ولذلك يقول الحق : ﴿ فَاسْتَبْشِرُوا ﴾ أي : فليظهر أثر ذلك على بشرتكم إشراقاً وسروراً وانبساطاً [١] .

﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ﴾ وهل يستبشر الإنسان بالبيع ؟ نعم ؛ لأن الإنسان لا يبيع إلا ما يستغني عنه عادة، ويشتري ما يحتاج إليه، فهنا الاستبشار بالبيع وليس بالشراء ، فالمؤمن هنا يبيع فانياً بباق .

﴿ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ وأنت إذا ما نظرت إلى الذين يخالفون العهد الذي أخذ عليهم ، تجد الواحد منهم

(١) وعلى المؤمن أن يكون له نصيب من هذا في تعامله مع الناس ، فعن أبي موسى قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث أحداً من أصحابه في بعض أمره قال: «بشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا». أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ٣٩٩) ومسلم (١٧٣٢) في صحيحيهما .

يحتاج للمخالفة لأن وفاءه يتعبه. لكن الحق سبحانه ليس فى حاجة لأحد وهو غنى عن الجميع ، ولا يوجد أدنى مبرر لخُلْف الوعد أبداً.

وتأتى ﴿وَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الصفقة التى انعقدت بينكم وبين ربكم.

﴿وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ والفوز هو بلوغ الغاية المأمولة فى عرف العقل الواعى ، كما تقول لابنك : «ذاكر لتفوز بالنجاح» وتقول للتاجر : «اجتهد فى عملك بإخلاص لتفوز بالربح».

إذن: فهناك «فوز»، وهناك «فوز عظيم» والفوز فى الدنيا أن يتمتع الإنسان بالصحة والمال وراحة البال. وهناك فوز أعظم من هذا؛ أن تضمن أن النعمة التى تفوز بها لا تفارقك ولا أنت تفارقها، فيكون هذا هو الفوز الذى لا فوز أعظم منه (١).

ويقول الحق بعد ذلك :

(٢)

﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾

---

(١) وهذه طبيعة الإنسان التى تطمح نفسه دائماً إلى الخلود وخلود ما أنعم عليه به، وقد لمح إبليس فيه هذا فقال : ﴿ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [طه] . فإبليس يمنيه بالخلد وبالنعيم الذى لا يزول ولا يفنى.

(٢) التائبون : من الشرك ولم ينافقوا فى الإسلام. العابدون : الذين ذلوا خشية لله وتواضعاً . الحامدون : الذين حمدوا الله على كل حال فى السراء والضراء . السائحون : الصائمون . الراكعون الساجدون : المصلون . الحافظون لحدود الله : المنتهون إلى أمره (راجع تفسير الطبرى).

وبعد أن عرض الحق هذه الصفقة، فمن هم المقبلون عليها [١] ؟ إنهم التائبون ، والتوبة : هى الرجوع عن أى باطل إلى حق.

وعمَّ يتوب هؤلاء التائبون ؟

نحن نعلم أن هناك إيماناً اسمه إيمان الفطرة. نجد ذلك فى قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الأعراف]

إذن : فالإيمان أمر فطرى ، والكفر هو الذى يطرأ عليه ، وقلنا من قبل: إن الكفر هو الدليل الأول على الإيمان ؛ لأن الكفر هو الستر [٢] ،

---

(١) لمس فضيلة الشيخ هنا معنى هاماً فى تفسير هذه الآية، فلن يقبل على الدخول فى هذه البيعة إلا من توافرت فيه هذه الصفات، ولكن ليس على سبيل الشرط، فقد ثبت فى السنة أن هناك من استشهد ولم يركع لله ركعة ، وكذلك جاء فى السنة أن الشهيد تغفر له ذنوبه مع أول قطرة دم (أخرجه أحمد فى مسنده (٤/ ١٣١) وحسَّن إسناده المنذرى فى الترغيب (٢/ ١٩٤) وقد اختلف المفسرون فى هذه الآية: هل هى متصلة بالآية قبلها أم منفصلة ؟ فاتصالها بها معناه أنه لن يدخل فى هذه البيعة إلا القليل النادر ، أما انفصالها فمعناه أن هذه أوصاف للكمَلة من المؤمنين الأقرب لبيع أنفسهم وأموالهم فى مقابل الجنة. انظر تفسير القرطبى (٤/ ٣١٩٧).

(٢) الكفر على أربعة أنحاء: كفر إنكار بأن لا يُعرف اللهُ أصلاً ولا يُعترف به، وكفر جحود، وكفر معاندة، وكفر نفاق، من لقى ربه بشىء من ذلك لم يغفر له. . . فأما كفر الإنكار فهو كفر بالقلب واللسان. وأما كفر الجحود فهو أن يعترف الكافر بقلبه ولا يقرّ بلسانه ككفر إبليس وأمية بن أبى الصلت ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴿٨٩﴾ ﴾ [البقرة] . وأما كفر المعاندة فهو أن يعرف الله بقلبه ويقرّ بلسانه ويأبى أن يدين به حسداً وبغياً ككفر أبى جهل. وأما كفر النفاق فهو إقرار باللسان وكفر بالقلب. نقله ابن منظور فى اللسان (مادة: كفر).

فمن يكفر بالله - والعياذ بالله - إنما يستر وجوده ، فكأن وجوده هو الأصل ، ثم يطرأ الكفر فيستره ، ثم يأتى من ينبه فى الإنسان مشاعر اليقين والإيمان فيرجع الإنسان إلى الإيمان بالله بعد أن يزيل الغشاوة التى طرأت على الفطرة .

و﴿التَّائِبُونَ﴾ : منهم التائبون عن الكفر الطارىء على إيمان الفطرة ، وأخذوا منهج الله الذى آمنوا به، ومن هنا نشأت العبادة التى تقتضى وجود عابد ومعبود ، والعبادة تعنى الانصياع من العابد لأوامر ونواهى المعبود .

﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ﴾ والعبادة كلها طاعة تتمثل فى تطبيق ما جاء به المنهج من «افعل» و«لا تفعل»، وقد يتدخل المنهج فى حريتك قليلاً ، وأنت بقوة الإيمان تعتبر أن هذا التدخل فى هذه الحرية نعمة يجب أن تحمد الله عليها ؛ لأنه لو تركك على هواك ، كما يترك ولى أمر التلميذ ابنه على هواه فهو يفشل ، ولكن الأب الذى يحث ابنه على المذاكرة وينهاه عن اللعب والعبث ، فلا بد أن ينجح .

إذن : الأوامر والنواهى هنا نعمة ، كان يجب أن نحمد ربنا عليها ، وكل ما يجريه الله على العبد المؤمن يجب أن يأخذه العبد على أساس أنه نعمة .

إذن : فالذين تابوا عن الكفر الطارىء على إيمان الفطرة هم تائبون يأخذون منهج الإيمان من المعبود ، ويصبحون بذلك عابدين لله ، أى : منفذين الأوامر ، ومبتعدين عن النواهى ، وهم يعلمون أن الأوامر تقيد حركة النفس وكذلك النواهى، ولكنهم يصدقون قوله ﷺ : «حُفَّتِ الجنةُ

بالمكاره ، وحُفَّت النارُ بالشَّهوات »[1]

حين تعرف أن العبادة أوصلتك إلى أمر ثقيل على نفسك ، فاعرف أن هذا لمصلحتك وعليك أن تحمد الله عليه ؛ وبذلك يدخل المؤمن في زمرة الحَامدين.

وأنت حين تؤمن بالله ، يصبح الله فى بالك ، فلا يشغلك كونه عنه سبحانه ، وإياك أن تشغل بالنعمة عن المنعم ، واجعل الله دائماً فى بالك، والحق سبحانه يقول:

﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) ﴾ [العلق]

لذلك يفكر المؤمن فى الله دائماً ويشكر المنعم على النعمة وآثارها من راحة فى بيت وأولاد وعمل.

و﴿ الْحَامِدُونَ ﴾ أيضاً لابد أن يستقبلوا كل قدر لله عليهم بالرضا ؛ لأن الذى يُجرى عليهم القدر - ما دام لم يأمرهم بما لم يقع فى اختيارهم - فهو حكيم ولا يُجْرى سبحانه عليهم إلا ما كان فى صالحهم. وبعد أن ترضى النفس بما أجرى عليها تعرف الحكمة ؛ ولذلك يقول سبحانه : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ... (٢٨٢) ﴾ [البقرة]

ويتابع الحق صفات المقبلين على الصفقة الإيمانية فيقول: ﴿ السَّائِحُونَ ﴾

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ١٥٣، ٢٥٤، ٢٨٤) ومسلم فى صحيحه (٢٨٢٢) والترمذى فى سننه (٢٥٥٩) والدارمي في سننه (٢/ ٣٣٩) عن أنس بن مالك. قال النووى فى شرحه لمسلم (١٧/ ١٧١) «فأما المكاره فيدخل فيها الاجتهاد فى العبادات، والمواظبة عليها، والصبر على مشاقها وكظم الغيظ والعفو والحلم والصدقة والإحسان إلى المسيء، والصبر عن الشهوات ونحو ذلك. وأما الشهوات التى حُفَّت بها النار ، فالظاهر أنها الشهوات المحرمة كالخمر والزنا والنظر إلى الأجنبية والغيبة واستعمال الملاهى ونحو ذلك، وأما الشهوات المباحة فلا تدخل فى هذه لكن يكره الإكثار منها مخافة أن يجر إلى المحرمة أو يقسّى القلب أو يشغل عن الطاعات أو يحوج إلى الاعتناء بتحصيل الدنيا للصرف فيها ونحو ذلك».

ومعنى «سائح» هو من ترك المكان الذى له موطن ، فيه بيته وأهله وأولاد وأنس بالناس ، ثم يسيح إلى مكان ليس له فيه شىء ما ، قد يتعرض فيه للمخاطر ، والمؤمن إنما يفعل ذلك ؛ لأنه لا شىء يشغله فى الكون عن المكوِّن ، ويقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا ...(١١) ﴾ [الأنعام]

إذن : فالسياحة هى السير المستوعب ، والسير فى الأرض منه سير اعتبار لينظر فى ملكوت السموات والأرض ، وليستنبط من آيات الله ما يدل على تأكيد إيمانه بربه ، ومنه سير استثمار بأن يضرب فى الأرض [1] ليبتغى من فضل الله .

إذن : فالسياحة إما سياحة اعتبار ، وإما سياحة استثمار ، أما سياحة الاستثمار فهى خاصة بالذين يضربون فى الأرض ، وهم الرجال .

أما سياحة الاعتبار ؛ فهى أمر مشترك بين الرجل والمرأة ، بدليل أن الله قال ذلك فى وصف النساء :

﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ...(٥) ﴾ [التحريم]

إذن : ﴿ سَائِحَاتٍ ﴾ هنا مقصود بها سياحة الاعتبار ، أو السياحة التى تكون فى صحبة الزوج الذى يضرب فى الأرض .

وقيل أيضاً : إن السياحة أطلقت على «الصيام» ؛ لأن السياحة تخرجك عما ألِفْتَ من إقامة فى وطن ومال وأهل ، والصيام يخرجك عما ألِفْتَ من

---

(١) الضرب فى الأرض : السفر لطلب الرزق والتجارة . يقول سبحانه : ﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ (٢٠) ﴾ [المزمل]

طعام وشراب وشهوة [1] .

إذن : القَدْرُ المشترك بين الرجال والنساء هو فى سياحة الاعتبار وسياحة الصوم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾ أى : المقيمون للصلاة ، وقد جاء بمظهرين فقط من مظاهر الصلاة ، مع أن الصلاة قيام وقعود وركوع وسجود ؛ لأن الركوع والسجود هما الأمران المختصان بالصلاة ، وأما القيام فقد يكون فى غير الصلاة ، وكذلك القعود . إذن : فالخاصيَّتان هما ركوع وسجود ؛ والحق يقول :

﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي [2] لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [آل عمران]

أى : صلِّى مع المصلِّين ، وهكذا نجد أن الركوع والسجود هما الأمران اللذان يختصان بالحركة فى الصلاة .

ثم يقول سبحانه : ﴿ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو حيثية تخص الأمة المحمدية لتكون خير أمة أخرجت للناس ، فالحق سبحانه يقول :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ...﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران]

فإذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر ، فلا بد أن تكون بمنأى عن هذا

(١) قيل للصائم : «سائح» ؛ لأن الذى يسيح متعبداً يسيح ولا زاد معه إنما يطعم إذا وجد الزاد ، والصائم لا يطعم أيضاً فلشبهه به سمى سائحاً . نقله ابن منظور فى اللسان .

(٢) القنوت : أداء الطاعة فى خضوع وخشوع مع الإقرار بالعبودية لله .

المنكر فليس معقولاً أن تنهى عن شيء أنت مزاول له [1]. إذن: فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، صلاح أو هدى مُتَعدٍّ من النفس إلى الغير، بعد أن تكون النفس قد استوفَتْ حظها منه.

ويقتضى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أن تعرف المعروف الذى تأمر به، وأن تعرف المنكر الذى تنهى عنه؛ لذلك لا بد أن تكون من أهل الاختصاص فى معرفة أحكام الله، ومعرفة حدود الله حلاً وحُرْمة، أما أن يأتى أى إنسان ليُدخل نفسه فى الأمر ويقول: أنا آمرَ بمعروف وأنا أنهى عن منكر، هنا نقول له: لا تجعل الدين، ولا تجعل التقوى فى مرتبة أقل من المهن التى لا بد أن يزاولها أهل فكر ومتخصصون فيها.

ثم يقول سبحانه: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ و«الحدود» جمع «حد» وتأتى الحدود فى القرآن على معنيين: المعنى الأول هو المحافظة على الأوامر، وتلك يردفها الحق بقوله:

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ... (٢٢٩)﴾ [البقرة]

وكل أمر يقول فيه ذلك هو حد الله فلا تتعدَّ هذا الحد، أما المعنى الثانى: فهو البعد عن المنهيات فلا يقول لك: لا تتعداها، بل يقول سبحانه:

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ... (١٨٧)﴾ [البقرة]

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: بَشِّرْ هؤلاء

---

(١) عن أسامة بن زيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُجاء برجل فيطرح فى النار فيطحن فيها كطحن الحمار برحاه، فيطيف به أهل النار فيقولون: أى فلان ألست كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: كنت آمر بالمعروف ولا أفعله، وأنهى عن المنكر وأفعله». أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٢٦٧) ومسلم بلفظ مقارب (٢٩٨٩)

ويقول الشاعر:

لا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وتأتى مثلَهُ ... عَارٌ عليكَ إذا فعلْتَ عَظِيمُ

الذين يسلكون هذا السلوك مطابقاً لما اعتقدوه من اليقين والإيمان ، لا هؤلاء المنافقين الذين قد يصلون أو يصومون ظاهراً. وكلمة ﴿وَبَشِّرِ﴾ و«استبشر» و«البشرى» و«البشير» كلها مادة تدل على الخبر السار الذى يجعل فى النفس انبساطاً وسروراً ؛ بحيث إذا رأيت وجه الإنسان وجدته وجهاً متهللاً تفيض بشرته بالسرور.

وبعد ذلك يتكلم الحق عن أمر شغل بال المؤمنين الذين كان لهم آباء على الكفر ؛ ومن حقوق هذه الأبوة على الأبناء أن يستغفروا لهم لعل الله يغفر ، وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يبين لنا أن رعاية حدود الله وحقوقه أوْلَى من قرابة الدم ، وأولَى من عاطفة الحنوّ والرحمة ؛ فالحق سبحانه وتعالى أوْلَى بأن يكون الإنسان باراً به من أن يكون باراً بالأب الكافر ، وقد جعل الحق سبحانه النسبَ فى الإسلام نفسه.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾

قبل أن يحظر الحق سبحانه على المؤمنين الاستغفار لآبائهم المنافقين ، بدأ برسول الله ﷺ ، فقال : ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾ ، وإذا كان النبى ينهى ، فالمؤمنون من باب أوْلَى ليس لهم الحق فى ذلك ؛ لأن الله لو أراد أن يكرم أحداً من الآباء لأجل أحد ، لأكرم آباء النبى إن كانوا غير مؤمنين.

وكلمة ﴿ مَا كَانَ ﴾ تختلف عن كلمة «ما ينبغى» فساعة تسمع «ما ينبغى لك أن تفعل ذلك» فهذا يعنى أن لك قدرة على أن تفعل ، لكن لا يصح أن